

## الفصل الثالث

### ابن هشام ، وماذا فعل بنص ابن إسحاق ؟

أواصل هنا خبر ابن هشام الذي بدأته في مقالى الماضى ، ثم أناقشه بعد ذلك « فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فاتنى به ، قال : فذهبت به إلى رحلى ، فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ! قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ، فقال العباس : يارسول

الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ! قال : نعم ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس ، احبسبه بمضيق الوادى عند خطم الجبل (خطم الجبل : شىء يخرج منه يضيق به الطريق ) حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ﷺ أن أحبسها .

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم . فيقول : مالى ولسليم ! ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا يسألنى عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء . قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .. وقال حسان بن ثابت الأنصارى .

لما رأى بدرأ تسيل جلاؤه      بكتيبة خضراء من بلخزرج

قال ابن إسحاق : فيها ( أى فى كتيبة الرسول ﷺ ) المهاجرون والأنصار - رضى الله عنهم - لا يرى منهم إلا الحدق (من الحديد ) قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن

أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال: فنعم إذن .

قال : قلت : النجاء إلى قومك ( أى السرعة إلى قومك ) حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الوسيم الأحمر ( أى الرجل السمين الأحمر الوجه ) فُبح من طليعة قوم ، قال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنك دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد (١) .

وإذا نحن تمعناً في هذا الخبر كله وجدنا أنه لا يستقيم ، وتبين لنا أن الهدف منه هو الارتفاع بمكانة العباس وتصويره على أنه كان من خيرة المسلمين في أيام الرسول ﷺ ، وهذا غير صحيح ، فكلنا نعلم أن العباس ظل على دينه المشرك حتى فتح مكة ، وليس لدينا برهان واحد على صحة ما يقال من أنه أسلم في مكة سراً ، وظل فيها يبلغ الرسول بأخبار قريش ، والخبر هنا يقول : إن العباس خرج يستقبل الرسول عند دخوله مكة ،

( ١ ) هذه نهاية الكلام الذي نقله المؤلف من كلام ابن هشام المبدوء في سر ٨ ص ٢٨ .

ويفهم منه أن العباس كان يعلم عن المسلمين كل شيء ، كأنه كان واحداً منهم من زمن طويل ، وهو يتحدث إلى الرسول حديث المقرب منه العارف بكل شئونه ، حتى إن الرسول يأمره بأن يقف بأبي سفيان عند مضيق في الجبل حتى إذا مرت فرق جيش المسلمين قام بتعريفه بها ، والخبر يرينا أنه كان بالفعل يعرفها ، فمن أين - إذن - كان قد انضم إلى المسلمين عند دخولهم مكة ، وفي نفس الوقت الذى انضم أبو سفيان إليهم فيه ؟ .

والخبر يصوره على أنه هو الذى أنقذ أبا سفيان من الموت على يد عمر أو أى رجل آخر من المسلمين . هذا كله غير صحيح، بل الصحيح الذى نفهمه من الروايات أن أبا سفيان هو صاحب الفضل الأكبر فى إنقاذ قريش ، فهو عندما ذهب إلى المدينة أجاز لنفسه بين الناس ، والرسول ﷺ أقر هذا الجوار ، وحيث إنه كان ممثل مكة فإنه أصبح من المفهوم أن مكة أصبحت مدينة مفتوحة ، وهذا هو السبب فى سلامتها ، فقد أمر الرسول رجاله أن يدخلوا مكة دخول سلام ، فلم يحدث قتال إلا فى الجنوب حيث دخل خالد بن الوليد ؛ لأن خزاعة كانت متورة ، فهاجمت قريشاً وقتل ناساً ، ولكن رسول الله أوقف القتال ، وأقر الناس على السلام مع أهل مكة ، بل شاء كرمه إلا أن يعبر عن تقديره لأبى سفيان فقال : إن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وهو تكريم ظاهرى ؛ لأن من دخل دار نفسه أيضاً كان آمناً . وبلغ من توقف الناس عن السلب والنهب أن أحداً لم يفقد شيئاً

إلا ابنة لأبى بكر ، ثم إن الرسول استسلف مالا من بعض كبار الكفار لكي يعطى جنده ، وقد رد هذا المال فيما بعد .

إذن فهذا الخبر كله موضوع ، وقد وضعه وأدخله في السيرة رجال بنى العباس ؛ لكي يعظموا أمر أنفسهم ، ولكي ينالوا من بنى أمية .

وهذه أخبار موضوعة في السيرة نفسها ، فعلينا أن نكون أيقاظاً ونحن نقرأ حتى لا يدخل علينا هذا الزيف . ولو أننا أعدنا طبع سيرة ابن هشام فإن علينا أن ننبه إلى ذلك في المقدمة وفي التعليقات حتى يتنبه الناس إلى هذه الزيادات التي تشوه تصورنا للكثير من فقرات السيرة . وجدير بالذكر أن السيرة التي كتبها ابن سعد في الجزئين الأولين من الطبقات تخلو - إلى حد ما - من معظم هذا التزييف .

فإذا انتقلنا إلى ما بعد العصر النبوي ، وهو عندنا يمتد إلى نهاية خلافة عمر ؛ لأن عصر أبى بكر وعمر يدخل ضمن العصر النبوي ، فقد سارا على الخط النبوي ، وفي خلافة عثمان تبدأ الفتنة الكبرى ، وهنا نجد أنفسنا أمام صور من التزييف يدهش الإنسان لقبول الماضين لها . خذ مثلاً حكاية عبد الله بن سبأ المسمى أيضاً بابن السوداء ، ويقصها علينا الطبرى وغيره في تواريخهم مع ظهور زيفها ، يقول الطبرى تحت عنوان : ذكر مسير من سار إلى ذى خشب من أهل مصر وسبب مسير من سار إلى ذى المروة من أهل العراق .. فيما كتب به إلى السرى ،

عن شعيب عن سيف ، عن عطية عن يزيد الفقعسي ، قال : كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلاد المسلمين يريد ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم .

فقال لهم فيما يقول : لعجب ( وعند ابن الأثير والنويرى ) العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨٥) .

( سورة القصص ٢٨ / ٨٥ )

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان هناك ألف نبي ولكل نبي وصي ، وكان على وصي محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، على خاتم الأوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانفضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعائه وكاتب من كان في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما كان عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبذرون ، فيقول أهل كل مصر : إننا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إننا لفي عافية مما فيه الناس ، وجامعه محمد ( بن مسلمة ) وطلحة ( بن عبيد الله ) من هذا المكان ، فقالوا : فأتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أيا تيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ما جاءني إلا السلامة ، قالوا : فإننا قد أتانا ، وأخبروه بالذي أسقط إليهم ، قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأنشروا علي . قالوا : نشير عليك بأن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم ، فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر ، إلى مصر وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر

المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم،  
واستبطأ الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل ، فلم يفاجئهم إلا  
كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يخبرهم أن عماراً قد  
استماله قوم ( وفي نسخة قد استمال قوماً ) في مصر ، وقد  
انقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ،  
وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر ( الطبرى ٤ / ٣٣٩ -  
٣٤١ ) .

هذا هو الخبر الذى يرويه الطبرى وابن الأثير والنويرى ،  
وهو لا يكاد يعقل ؛ فإنه يجعل كل أزمة عصر عثمان وفتنته من  
عمل رجل واحد هو هذا ابن السوداء الذى يقول إن اسمه عبد الله  
ابن سبأ ، وإنه كان يهودياً من أهل اليمن ، ودخل الإسلام وبدأ  
هذه الدسيسة الكبرى ، فهو الذى اخترع الرجعة واخترع  
الشيوعية ، وبدأ تحريض الناس على عثمان ، مع أننا نعرف أن  
لهذه الفتنة الكبرى أسباباً من واقع التاريخ ، ولن يتسع المجال  
هنا لذكرها ، ولا أظن أن أحداً فى عصرنا هذا يجرؤ على البحث  
فيها ؛ لأننا مازلنا فى عصرنا هذا على حساسية بالغة فى كل ما  
يتعلق بالصحابة ، ولكن من الواضح أن فتنة عثمان - وهى  
حادث ضخم لا شك فيه - لها أسبابها التاريخية المنطقية ، ثم إن  
الطبرى يأتى بعد ذلك بروايات عن تفصيل أسباب ما حدث فى  
عصر عثمان لا تكاد تفهم المراد منها ، وأنت مهما يبلغ فهمك فإنك  
لا تستطيع أن تصل إلى مقطع الحق فى الموضوع .

وهنا نفهم السر من حكاية ابن السوءاء هذه ، فإن الحقيقة فيما يبدو لأى إنسان ذى نظر هى أن عبد الله بن سبأ هذا لم يكن ولا كان قط ، وإنما هى أسطورة وضعت لكى نبعد أى اتهام بالشر إلى أحد من قادة العصر ، وكلهم من الصحابة ، فإن عصر الراشدين هو عصر الصحابة والتابعين ، والثورة على عثمان كانت فى الحقيقة ناتجة عن ظروف تاريخية طبيعية ترجع إلى استحالة تسيير الأمور على النظام الذى سارت عليه أيام عمر ابن الخطاب ، فإن الزمان متغير ، ولكل زمن أحكامه ، فقد كان الإيراد وافراً جداً أيام عمر : نظراً إلى غنى الأقاليم التى فتحت فى أيامه . وفى منتصف خلافة عثمان - وبعد نهاوند فى المشرق، وفتح إفريقية فى الغرب وصلنا إلى بلاد لا قصور فيها ولا أموال ولا ذهب ولا فضة ، وإنما وجد العرب أنفسهم فى مواجهة الترك فى المشرق والبربر فى المغرب « ولا مغنم هنا إلا رءوس الماشية والأسرى من الناس » وهذه لا تعطى ما كانت فتوح الشام والعراق ومصر تعطيه من الخيرات الضخمة حتى قيل : « إن دخل الفاتح العربى فى عصر عمر كان يصل إلى ثلاثة آلاف دينار سنوياً فى المتوسط ، والمقاتلون الذين كانوا يخوضون هذه المعارك كانوا من العرب الذين أسلموا فى العام التاسع من الهجرة وما بعده » وهؤلاء كان نصيبهم قليلاً فى الأعطيات بحسب النظام الذى وضعه عمر ، فلما قلت إيرادات الناس من المعارك نظروا فى العطاء فإذا المستحق لكل منهم لا

يكاد يكفى لشيء ، فذهبوا إلى الخليفة يشكون ما يعانون ؛ ولهذا فإننا نجد أنه بعد مناقشات طويلة مع عثمان حول مآخذ يسيرة كانوا يأخذونها عليه - نصل إلى بيت القصيد من هذا الكلام الطويل كله ، فيروى الطبرى ما يلي من غير سيف بن عمر ومن إليه فيقول : إن عثمان لقي وفد أهل مصر فى قرية له خارج المدينة فقال لهم : « ما تريدون ؟ قال : فأخذوا ميثاقه ، قال : ما حسبه قال : وكتبوا عليه شرطاً ، قال : وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم - أو كما أخذوا عليه - قال : فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء ، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فرضوا بذلك وأقبلوا معه إلى المدينة راضين » .

قال الطبرى بعد كلام طويل جداً ص ٣٥٥ : « فقام (عثمان) فخطب فقال : إننى ما رأيت والله فى الأرض من هم خير لعوباتى (أى أخطائى) من هذا الوفد الذين قدموا على » .

وقد قال مرة أخرى : خشيت على هذا الوفد من أهل مصر ، ألا من كان له زرع فليلحق بزراعة ، ومن كان له ضرع فليحتلب ، إلا أنه لا مال لكم عندنا . إنما هذا المال لمن قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فغضب الناس وقالوا : هذا مكر بنى أمية « (الطبرى ٤/ ٣٥٥) .

ثم تلا ذلك حكاية مشهورة ومتواردة في الكثير من مراجعنا « هي حكاية وفد مصر الذي كان عائداً إلى بلاده راضياً بالاتفاق الذي تم مع عثمان ، ثم رأى رجلاً يتجه إلى مصر ويعترض الوفد مرة بعد أخرى ، فأمسكوا به وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان إلى والي مصر يأمره فيه بقتل هذا الوفد (الطبرى ٣/ ٣٥٥) ورأى المؤرخين القدامى هو أن هذا الكتاب من تزوير رجال بنى أمية الذين كانوا مسيطرين على إدارة عثمان . وهي أيضاً مستبعدة ، فإن رجال بنى أمية لم يبلغ بهم الخطل أن يدبروا هذا التدبير الغبي الذي لا معنى له .

ولكن المهم أننا وضعنا أيدينا على سبب الخلاف بين الناس وعثمان ، فإن الناس لا تثور على الدولة لزيادة مساحة مراعى الدولة أو لضرب عبد الله بن مسعود وما أشبه هذه من الأمور ، وإنما تثور لمسائل اقتصادية ، وهذا واضح من كلام الطبرى ، وقد سبق أن أشرنا إليه ، أما حكاية عبد الله بن سبأ ابن السوداء فخرافة لا معنى لها ، ولا ندرى كيف تواتر ذكرها فى معظم مراجعنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنها نشأت عن رغبة الناس فى تحاشي أى نقد إلى أى واحد من الصحابة ، وهذا معقول ومشكور - أيضاً - من المسلمين . وقد سبق أن ذكرنا أيضاً أنه يصعب جداً دراسة فتنة عثمان لنفس السبب ، فإن عصر الخلفاء الراشدين هو عصر الصحابة وهم أبطال تاريخنا الإسلامى ونجومه .